

# ساعة الحكيم

معلقة في الهواء بدون أعمدة ولا ركائز . القنب  
شامخة متلاحمة . رؤوسها السنونة تستطيل لتخترق  
جليد السحب الرصاصية . بيضاء . ناصعة البياض .  
بدون نوافذ ولا مصاريع . كتلة متراسة تلفّ في بطن  
فتصيبه بالدوران ، وهو ينظر اليها من القاع . واقف  
على غير قدمين وسط هوة رمادية يفرض السحاب محيطا  
لها تفرضه العين ولا تميزه ، فيقلب اللون قهويا -  
حليبيا . عريان يرتجف . عيناه معلقتان صوب القنب  
السابحة . شعر صدره وساقيه وحوضه يقشع . أداته  
الجنسية متقلصة تكاد لا تبين . يحملق . ينظر .  
تتراخي الاجفان . يغمض العينين . يشعر الآن انه معلق  
من أشفاره بخيط جد رقيق يشده الى قاعدة القنب ،  
ومن تحته تلسعه شفرات الحلاقة متصاعدة نحو الحوض .  
يضع يديه تحت السرة ثم يصرخ فيما تتحرك كتلة القنب  
البيضاء بسرعة أكبر نحو شمال أو جنوب لا يعيه .

الطائرة تقترب من مطار طوكيو . لا . من مطار  
هونغ - كونغ . لا يتذكر جيدا . الطائرة تقترب ، ولحظة  
ملامسة الارض جد وشيكة . راح يكدّ دماغه بحثا عن  
صورة يشبه بها هذه اللحظة . استقر رايه أخيرا على  
صورة الطائر الفارد جناحيه، المنحدر نحو المياه النائمة .  
يطول الانحدار ويتقارب الجسدان دون أن يحدث  
التلامس . لحظة معلقة في الابدية . أيقظته الهزة التي  
أحدثتها العجلتان وهما تحطان على الارض ، من سرحانه .  
استدار مبتسما نحو جارته الباريسية التي جاءت تبحث  
في هونغ - كونغ عن عجائب تكسر الرتابة وتشعل الخيال  
المتعب من وطأة الممارسة والزمن .

إذا فهم جيدا .. إذا فهمت جيدا ، سيمكنهما أن  
يتعاشرا فوق هذه الارض الغريبة . ولم لا ؟ أجاب  
ضاحكة .

في المساء فقط وهما يجوسان عبر شوارع المدينة  
المتلألئة المكتظة ، تنبه الى انه لم يحترم الوعد الذي قطعه  
على نفسه بأن يتحرر من كل القيود لينطلق وحيدا  
يكتشف مدينة طالما داعبت خياله ، وينسج من واقع  
يعيشه شريطا اختزنته ذاكرته في لحظات أحلام اليقظة  
والملاحة المتحممة . كان يمني النفس بالتسكع أمام  
الواجهات وعبر الازقة الضيقة والواسعة ، وبجولات  
داخل المواخير والحانات ، وبمحادثة العقلاء والحمقى ،  
ومجالسة الافاقين والدجالين ، وكل من يحمل شارة  
أو لا يحملها . كل من يصادفه في طريقه . انطلقا  
وراء أسرار لا تزيدها الملامح المستديرة المتشابكة الا  
غموضا وانغلاقا . أول مرة عشق فيها هذا الجزء من  
العالم ، حينما كان يشاهد شريطا تجري بعض حوادثه في  
هونغ - كونغ : البطل المنهك ، المنسوف من الداخل  
يتجول عبر الازقة الآهله بالمومسات . الوجوه المستديرة  
تلاحقه في ابتسامات يتنافى أدبها مع الغرض ، وهو في

قصة بقلم  
د. محمد راد

حيرته وتبدده لا يعرف ما يفعل . يتوقف عند واحدة ، يمزق قميصها وحاملة النهدين ويشرع في دفعها نظرا الى وجهها المتسم دائما . . تستنفذ الحركة جاذبيتها فيتوقف ويمد لها ورقة مالية .

لاوعيه تعممه صور هذه المناطق . . حتى الذين يحلمون بالصين الحمراء ، والفيتنام الملتهبة لا يستبعدون وقفات عند هونغ - كونغ وطوكيو اذا أمكن . شيء طبيعي اذا أردنا التبرير ، وحتى بدون تبرير . لو صدق حدسي : الانسان في هذه المناطق شكل ثان . يهرك بحركاته ، بردود فعله ، بفلسفته وطرائق مواجهته للتحديات . . . « لانه يتصرف على شاكلة الطبيعة ، يصعب عليه ان يكون متصنعا » قال كونفوشيوس . . كم من الاجيال مرت قبل ان يثبت ماوو عكس ذلك : لاننا نتصرف كبشر ، فاننا نذيب التصنع ونعيد للانسان حريته وتلقائيته .

- لماذا هونغ - كونغ وليس بكين ؟

- لعلها محطة لازمة . . وقد تكون كل الطرق مؤدية الى بكين . .

عادت الى الضحك كأنما لتدفع حرجا متخيلا من سؤالها :

- سؤالي لا معنى له . . انت تعرف ان معظم شبابنا في باريس تحجّ قلوبهم الف مرة الى بقاع الصين . انا لست ماوتسية ولا يضايقني وجود الصين ما دامت حريتي مضمونة . . تفهمني ؟ انا قضيت طفولة تعيسة ، لم أتم دراستي . منذ الثامنة عشرة اصبحت محظية لاحد الاثرياء . نفحني مالا اشترت به منزلا وافترقنا بعد ان بلغت الثلاثين . اعمل سكرتيرة واتوجس خيفة من المستقبل . اريد ان اتمتع لكن الحياة لم تعد سهلة كما كانت . شباب اليوم يخيفونني بعشقمهم للعنف . .

طعم الحانات يصبح الذّ في مثل هذه اللقاءات . الآخر يفتحم خلوتك . يضعك أمام أسئلة جديدة . تتنازعك الرغائب والفراغ . تقول كل شيء يمكنه ان ينتظر . لنكتشف المزيد من المعاش وليكن الهضم آخر المطاف .

الثالثة صباحا وهما عائدان يدقان بحدائيهما افريز الازقة الغافية ، أحسن ان وحدتهما الطافية بعد جولة في مدينة مسحورة لن يخفف من وطأتها سوى التحام الجسدين . فتح نافذة غرفته دون ان يضغط على زر النور . القمر المتلألئ في طريقه الى المغيب ينير السرير لكنه ، وهو ينظر اليها تنزع آخر قطعة تلامس جسدها ، بهت أمام بياض جسدها : جدّ أبيض ، ناصع البياض . تقول جدار حديث الطلي ، تقول سمكة منزوعة القشر والجلد . سرت قشعريرة في جسده . تكهوب . طارت الخمرة ، وغمره صحو دافق . ينظر اليها في بلاهة

واندهاش . عيناه تحدقان تكادان تخرجان من محجريهما . منذ لحظة فقط كان يقول لها : أيتها الباريسية الجميلة ستهينني الليلة دفئا جديدا . الآن هو متمسك في مكانه ، وهي متضايقة من نظراته البلهاء التي تطوف بجسدها من الرأس الى القدمين

- مالك ؟ خجول ؟ لم تضاجع امرأة من قبل ؟  
- بلى . ألف امرأة . منذ الرابعة عشرة من عمري .  
- اذن ، ماذا ؟  
- لست أدري .

تقترب منه . تداعب صدغيه وعنقه . تمصّ حلمة صدره . لكنه لا يكاد يشعر . بعد جهد حرك يده ليمسك شعرها ويمررها على جسدها . لسعه البياض .

- لعلك متعب ؟

- أبدا . انا اشتهيك حتى من قبل ان اولد .

حركاته لا تترجم فعلا ما يقول . شيء ما يحبس العفريت داخل القمقم ولو ان الجنس استيقظ في نهاية الامر ، ولو ان الجسد تمدد فوق الجسد . . فان شيئا ما يكبلّ حركاته ويعوقه عن الوصول الى الايقاع المنطلق .

لحظة الشهوة جلتها غلالة بضاء . قال في نفسه : لقد ضاجعت الموت !

بعد سبعة أشهر ، كانت الطائرة تحمله الى باريس . راح يستعيد لقاء مع ذات الجسد الابيض ، وراح ذهنه يبحث عن صورة لتلامس العجلتين مع الارض فلم يجد غير صورة الطائر الفارد جناحيه ، المنحدر نحو المياه النائمة . . وقال ان الامر ، رغم كل شيء ، أحسن من ذي قبل . اكتمل الحلم الذي داعبه منذ قديم : ان تكون له عشيقة في باريس يزورها كلما مرّ بهذه المدينة الجميلة . قال لها في الهاتف ضاحكا :

- يظهر ان الحجّ الى باريس اكثر جاذبية من الحجّ الى بكين .

- هذا يسعدني . . متى أراك ؟

رقصا حتى مطلع الفجر . تحدثا في كل شيء . العالم فعلا يدور . نحن لا نتغير بالقدر الكافي . نحن ، على العكس ، تتغير بأسرع مما نتظن ، أقصد الاعماق لا السطح . التغير عملية لا تتجزأ . فقط يصعب علينا ان ندرك . نستطيع الصورة التي كوّنها الآخرون . . نتصامم عن اللحظات الجديدة . الكسل ؟ الجبن ، نقص في الارادة ؟

لا أحب ان تتفلسفي بهذه الطريقة . أنت تكهين العنف وهذا يمنعك من ان تري كيف يمكن ان تتخلخل المصنقات على جباهنا وأفواهنا وأجسادنا .

في هذه المرة ايضا صعق لبياض جسدها . خفت

الحماس والاندفاع وتقلصت الشهوة . لم يكن صعبا أن تلاحظ حالته .

— أنت بيضاء أكثر من اللازم .

— آه .. نسيت أنك أفريقي ، لا يعجبك بياضي ؟

— بياضك يذهلني . يثلجني . أجده غير عادي .

ضحكتها لا تذيب تراجيدية اللحظة .

— أطلبي جسدي بالسواد ؟

— آه لو تستطيعين .

— أنت مريض لا شك .. تعال لتنام .

\*\*\*

مريض أنا . جئت إليك يا من تحلل النفوس وتسبر أغوارها ، تكشف الخبايا والكوامن ، والعقد والظلام . تعيد للكيان توازنه . تحرره من حباله المستورة . تطلق نوازعه المكبوتة . كل القرابين أحملها لو تعلم . من أين الطريق إلى معبدك يا ملكا لم يتوجه صولجان ؟

— من هنا .. تمدد فوق الأريكة . تحلل من ربطة عنقك . ضع رجلك أينما شئت . دخن إذا أردت . تنفس بعمق ثم حدثني عن كل ما يمر بخاطرك . اقتنص أية لحظة تشاء وانطلق . لا تنسق أقوالك . لا تفرض رقابة على ما تتفوه به . أنت الآن في رحاب الكينونة الكثيفة ، في رحاب الشعر الممزق لكل الحجب . اصهل أيها الجواد الذي صدىء صوته .

أقول لك عن حلمي .. أروي لك أحلامي . شاهدتها منذ ولدت هي نفسها تتكرر . ينحبس الزمن في قارورتها . تتمخض كل يوم ، من يفك أسرارها ؟

حلمت بالنعمان يختال عجبا في قصر الخورنق وبالجواري يسطن الاسياد الذين يفسدون في الارض والسماء وبالليلة الخمسمائة من حكايا شهرزاد ، حلمت ببشار يصب الخيل في الزيت وبالمعري يضحك مجلجلا من الشقاوة والنعمى وبالصعاليك يذبجون أجساد التجار فلا يسيل منها دم بل قار وبالقرامطة يتنادون لاكل الزيتون فوق جبل الطور ، حلمت بكاهنة البربرية تضاجع ادريس الاول وبعقبة بن نافع يقبل فرسه في اشتياق وأحمد موسى يقفز من القبر الى قمة الجبل ، حلمت بالولييد ابن يزيد يصلي سكرانا وبهارون الرشيد يفاضل المتجردة ، حلمت بالضعب يأكل السبع فلا تسعه بطنه وبالجيش العرمرم تدفنه رياح ساقية ، حلمت بالمسيح يبعث مارلين مونرو من قبرها فتتهف له كل الحناجر ، حلمت بأرتال المشردين يصوبون البنادق وبالنار تلتهم الاخضر واليابس وبالسادجين يطلبون سقيا المدينة والعباد ، حلمت بالازواج كل الازواج ينتحرون وبالموتى يستيقظون ، حلمت بالربيع قبل الشتاء وبالنهدي قبل الثغر وبالبحيم يسكنه الولدان المخلدون وبالأعاصير يشربها الفنجان ، حلمت بالشيطان

بأجسام كل المومسات وغير المومسات اللائي ضاجعتهن ، حلمت بالنهود ذاتي كنت ألسيا وأنا طفل صحبة أمي في الحمام ، حلمت بالساحرة تصعق نظراتها الطيور والاناسي والاسماك ، حلمت بما لم يحلم به أحد : تسلخت جلدي تبخر جسدي . عدت نطفة في رحم بكر . آه او يصدق الحلم !

— حاول أن تغادر الاحلام الى المعاش . فتش في زوايا ذاكرتك وأنت طفل عن أول ما تتذكره . هل تستطيع أن تستعيد لحظة التماس بينك وبين العالم ؟ على مهلك . تنفس بعمق . كل الوقت أمامنا . — كل الوقت خلفنا .

— أنت ترتعش . حبات العرق ترشح على جبينك . عيناك تفيمان . لا تقلق . اقتنص ما يترأى لك . فك حبسة لسانك . اصهل أيها الجواد الذي صدىء صوته .

— عمري ألف عام .. يخيل اليّ ان عمري ألف عام . لكن ما أراه الآن يذهلني . في البدء ، بدئي ، كان النهدي . نهد أبيض . جسد عار أبيض . الشعر هالة سوداء تضاعف من بياض الجسد . هذا الجسد أعرفه . لم أضاحه . يتمدد بلا حراك . عيناها مطبقتان . كنت في الرابعة . كنت في الخامسة .. كل من في البيت الكبير يبكي رجلا ونساء . بكيت بدوري . الخادمة تحملي وتقترب من الغرفة المقفلة . أرادت أن تملص مني . فتحت باب الغرفة ووضعتني على العتبة . انقطع صراخي . خطوط نحو خشبة « المفسل » الذي تتمدد فوقه عمتي . كانت بلا حراك . كنت أعبدها . في ذهول اقتربت ثم وضعت يدي على نهدها . كان باردا وجد أبيض . امتدت يد من ورأئي فاخطفتني .

نصاعة صورة الجسد الابيض الميت ، الآن ، أوضح عندي من كل الذكريات . يمتلئ ذهني بكل التفاصيل ، حتى نسيج العنكبوت فوق الرجاج .. لن أنساها قط الى آخر لحظة ، أتنفس فيها فوق الارض أو بين طيات الغمام .

أحبو داخل القبو

فوق اجسام هلامية رخوة

الطحلب يعوق خطواتي

أتلقت الى الوراء فلا أرى نورا يشع

الظلمة والزهمير في ثنايا العينين والمخ

يا أحلاما لم أحلمها بعد : هل تدفين بياضك تحت ركام الذكريات ؟

الرباط

